رواية الحسناء

قصب السبق

كلمة اطلقتها العرب على قصبة كانوا يضعونها في طرف ساحة السباق ومن سبق من الفرسان واختطفها يقال عنه احرز قصب السبق · ولشدة ولع العرب بسباق الخيل وضعوا اسماء لخيل السباق وهي : المجلي المصلي المرتاح العاطف المؤمل اللطيم السكيت ولاستعمال هذه العبارة رواية تاريخية واقعية نقدّم اخبارها لقراء الحسناء تفكهة واثباتاً لما كان عليه سكان المضارب والخيام من طيب القلب وسمو المبدأ والاخلاص في الوعود وقد سارت بطيب ذكرهم الامثال التي لا تزال يرنّ صداها في وسط المجتمع الانساني وفي فضاء الحضارة والتمدن الحديث

روي انه كان في نواحي دمشق الشام في ايام بني غسان امير عشيرة شديد الولع بسباق الخيل · له ابنة تتغزل بها الشعراء فكانت محجة شعرهم · وهام بها الظرفاء فكانت قطب افكارهم ونقطة آمالهم · وفوق ذلك كانت على جانب عظيم من الفروسية حتى ندر من لا يصادفها في ميدان السباق ولما كانت بيت قصيد كل ناشد او بالحري كانت لشعر الشعراء « كالحلي للسيف او كالوشي للعلم » دوى خبر وجودها في سائر الاقطار · فكانت تقاطر الامراء القبيلة اليها من كل صوب وناحية بغية مطابقة الخبر الخبر · ومن جملة الذين اموا حماها امير متنكر من امراء العرب الكرام الذي ما كاد ينظر الفتاة حتى اكبر وكبّر واكد عجز واصفيها عما هي عليه من الخلق والخلق والفروسية

وكان من عادات تلك القبيلة ان يتألب اهلها في ايام مخصوصة لمشاهدة سباق الفرسان · واعتاد الامير ان يتحف الفارس السباق بجائزة سنية · ولما كانت تلك الاميرة المحكى عنها وحيدة ابويها وسليلة بيت الامراء كان منوطاً بها اتحاف محرز قصب السبق تلك الجائزة المعنية ·

وفي اثناء اقامة الامير المهاجر في تلك القبيلة جرى السباق جرياً على العادة المألوفة فخرجت الفتاة ووالدها الى ضواحي الخيام حيث اعدّ لها قبة مفروشة بافخر نسيج في ذلك العصر مرتفعة على اكمة مجللة بوشاح سندسي طرزته يد الطبيعة بالوان تبهج النفس وبصنعة تخجل من ابدع · والاكمة مشرفة على ميدان السباق الفسيح · وما هي الا برهة من الزمن حتى غصّت الساحة بجمهور المتفرجين والميدان بجموع الفرسان · فانتصب

الامير اذ ذاك وقسم الخيالة زرافات زرافات وامر فوضعت القصبة في الطرف الآخر من الميدان واستعدت كل عصابة لوحدها الى الجري في مضمار السباق . فما الا كلمح البصر حتى ارخت الخيالة العنان لسوابقها فاربد الافق من الغبار الطائر من تحت سنابك الجياد وانعقد فوق رؤوسهم كسدل الظلام وبعد قليل تمزق ذلك السدل الغباري وانكشف سجفه الحالك عن الفائز من تلك العصابة فانزوى جانباً منتظراً نزول العصابة الثانية وفوز احدها وهكذا كلما انتهت زمرة من السباق كان ينزوي الفائز منها منتظراً الباقين مع من تقدمه الى ان اكتمل سباق العصابات كلها فانضم الفائزون اذ ذاك بعضهم لبعض وتهيأوا للجري معاً قصد احراز النتيجة عن محل ينتخبه ملاك (الآل الاميرية) بجائزة قصب السبق التي طالما تاقت اليها النفوس فكانت اعطش اليها من الظامئ الى زلال الماء . ولما ارجعت القصبة الى مركزها حتى انبرى الطالبون لاختطافها بجري يفوق جري النسور اذا كرّوا وبإرادة لا تقف امامها البيض ولا السمر ولا الغمرات الحربية لو وجدت في عصر البدوي اذ ان فخر السابق فخر يذكر اعتباره .

وكان من جملة الشرذمة الاخيرة ذلك الامير المتنكر الذي في نفسه امر لو عارضه في نواله الصلد الاصم لفتته شظايا من خفق فيصل النار الحاد الشظايا من شرار الحب الحقيقي السامي فكيف لو نزل عليه بساط الحب . . . . . .

ان عمل القضاء والقدر عجيب تأثيره على بني الانسان وعظيم وقوعه عجيباً عند امل المنتظر وحلوه ، اصطدامه بحقيقة فكر الطالب . فلم تمل ملكة النهار لطفل مكتسبة ثوبها النهاري الا والمهاجر فاز بقصب السبق « علي » واقع بيده القصبة وحدق بشمس الذهب كأنه كان يقول لها فزت ايتها الشمس بالوسيلة التي انبع لي الفوز الذي هويت لاجله وان متنكراً مشتاقاً متناهياً مشتاقاً مع الوجد للآن بذوبان الفؤاد فكيف بيما وقد ابتدأت السمتية الفعالة لي حقائق وما من ناص

على ما فوز لكن بالكفي ولعله كما فزت الان عند اقبال وجه اعدائي الرهيب السادل ستاره الخديدي الخاص عن اعين الناس ما حسن وما قبح من العوالم الحيوية والبذيئة والفعالم الاثمية والسافلة . في تلك الساعة ساعة الظلام فرصة وحوش بني الانسان تلك الفرصة الهائلة التي اتخذوها لارتكاب اقبح الآثام والجرائم وخصوصاً في عصرنا الخالي عصر النور . بينما تكون وحوش الغاب سارحة في بهامه الفلا وحزونه طالباً لفريستها تدب وحوش بني الانسان من كهوفها متدرعة بأنيابها الخناجر واسلحتها المسدسات بغية الافكار بجريمة فظيعة

يقترفونها . . . .

اعدّ ذلك الامير الغريب صدراً رحيباً لنوال الجائزة المعنية . وتقدم بقلبٍ لاهب حبًا زاده لهبًا عَلَى لهب تقرُّبه من فاتنته . فاصبح قلبه في تلك الساعة كعليقة موسى وخدّاه شرارة لحبها التي كانت تقول المكان مقدس اعدّ لك ايتها الحبيبة انت وحدك موسى الحب . . . .

ايها الملاك البشري القلب المتكبر بجولان [illegible] وحدك تخلق من المرأة امرأة جديدة بحيث ان امرأة الغد تختلف اختلافًا تامًا عن امرأة الامس كما قال بلزاك . . . .

اقترب الامير من حبيبته فالبسته الجائزة عَلَى رأسه . ونظر اليها فسقاها بعينيه الهوى العذري المنبعث عن شعلة الحب الحقيقي المنزه عن الافكار الدنيئة الشريرة . واول خطوة الفوز الحافظ . فاستمال قلبها وملأه حبًا كأنه نفخ فيه نسمة حب جديدة . فاستنتج من نظرها اليه المملوء انعطافًا وتبسمها الساحر [illegible] السرائر اوليات رضاها . وان جوارحها تلك النظرات المشفوعة بالتبسم الطبيعي كانت تقول كن مطمئنًا فقد ملكت قيادي كما ملكت قيادك . وان الحب امرنا بقوله كونا حبيبين فكما انت حبيبي وانا لست لغيرك وسوف اكلل هامك يا اكليل الفوز في سباق حبي كما كللت هامتي واسلمك يا اكليل الفوز قصب السبق الى الجياد الضمر .

« وما انت يا العذري الا كريم طيبة كنت او نشيطًا فلا يأخذك العجب لقولي فقد استحكم بيننا الحب لاول نظرة وامتلكنا امتلاكًا لا مفر منه . وانت تدري وتعلم حقيقة ان القلب موطن وحي الحب الحقيقي . وما الحب الا شعلة علوية يرسلها الله الى قلب كل انسان . بل بالحري هو كما قال « بوسادوني » الجناح الذي اعطاه الله للنفس لكي تطير به اليه . لانه افضل والطف مهذب كما قال « باكون » ويحل كل المسائل كما قال « بلوتارك » . والمعزي للبشرية والمحبب اليها كما قال (روسستر) الحب نقطة عسل [illegible] في كاس الحياة تخفف ما فيها من المرارة »

وهكذا افترق عنها بعد ان جرت دمعة من كل منهما فذكت نار تجدد اضطرامها وكانت تلك الدمعة كالمداد لاقلام الحبين لتسطير ما يوحيه لهم ساعي حبهم

وفي ثاني يوم تبادل الامير واميرته الحب عَلَى انفراد مبتعدين عن الخيام خشية عين المراقب . وقد صفا لهما الجو وخلا المكان فبثا من مكنونات فؤاديهما ما برهن عَلَى شرف المبادي ثم اتفقا قبيل الافتراق على ان يطلبها من ابيها بعد ان يكشف له النقاب عن حقيقة امره ومصدر نسبه . وما ابتعدا عن بعضهما حتى عقدا بينهما عرى الاخلاص الوثيقة واقسما الايمان المحرجة عَلَى الوفاء بالعهد عملًا بحكم الضمير الحي اس الفضائل . واما عَلَى حبيبنا الحقيقي

بالثبات وبين قلبيهما صلات ما ركوني النظر المؤبد صحتها نطقا به . ومضى كلٌ بحال سبيله وفي نفسه شعلة حب من قبسه الحقيقي تريه الأمل امل الحياة الهنيئة من وراء حجب المستقبل

ذهب الامير بعد ان ترك ذلك الملاك اللطيف ملاك حبه قاصداً امير القبيلة ليطلب منه يد ابنته الاميرة المحبوبة . ذهب وفي ذهابه كان متردداً لفكر طرأ عليه وذلك الفكر اقبح من ان يذكر امام تمثال الحب الحقيقي . امير القبيلة كان اعرق نسباً من الامير الغريب . فرق واضح ينظر اليه بتدقيق الذين يعتدون بالشرف الموروث اولئك هم الذين اصبح عندهم التمويه كل شيء . والحقيقة في نظرهم كلا شيء . خطر للامير ذلك الخاطر فكان مصيباً ولكن من سيطر عليه الحب وانتشر في جثمانه انتشار الدماء لا يثبط عزيمته عن الاقدام فكر ولا افكار ولا يثنيه عامل من العوامل والا فهو خالٍ من الحب وشعاره

مشى الحب ومشت معه التخيلات . والمحب الصادق ان اراد يحيك من خيوط الشمس سبباً كي يتوصل به الى آماله . وصل حيث ابو الفتاة . وبعد مبادلة الاميرين ما اقتضاه المقام من السلام العربي والتعارف اخذا يتجاذبان اطراف الحديث حسب عادة امراء ذلك الزمان حتى افضى بالضيف الكلام الى عرض ما جاء لاجله على امير العشيرة الذي ما كان منه الا اعادة ضيفه بصفقة المغبون لذلك السبب الذي افتكر به . والذي كان لديه كحجة دامغة لرفضه الطلب . فاجفلت الفتاة لذلك الرفض المزعج وسقط اصرار ابيها على الرفض على قلبيهما سقوط الصاعقة على راس المذنب فهلعا . . . . .

نعم المحبة تخسر اجمل محاسنها اذا فارقها الشرف كما قال جان جاك روسو . ولكن هذا الرجل العظيم لم يعن بقوله الشرف الموروث المنتقل كالعقار من فرد الى افراد يتبجحون بالفخفخة والتملق الذين هم اجدر بالملامة واللوم . اولئك الذين ينادون بالشرف ويفضلونه بالقول جهاراً وفي الخفاء يفسدونه في وحول الدنايا . كلا معاذ الله ان يكون هذا هو الشرف الذي يدافع عنه العالم ويطلب رفعه على المحبة . تفاوت الالقاب والانساب ليس من خصائص الشرف الحقيقي ضالة في وفاة اليوم المشهودة . تكبر المرء وعجرفته والثروة الطائلة امور الحقيقة هي من سقط المتاع وليست من اسباب الشرف التي يهدأ بها بال الانسان الحي الباحث عن مصدر الراحة والهناء . فالمحبة والشرف صنوان لا يفترقان وفي المحبة الصادقة شرف يعظم لعظم المحبة

لها بقية

طرابلس

حنا قصاص